من معجم إلى معاجم(*)

ألفريد لويس دي برمار

ملخص البحث

يتناول الكاتب تجربته في تعلمه للغة العربية، حيث بدأها بالعامية، ثم تدرج الى الفصيحة.

وقارن بين اللغتين : العامية والفصيحة، ووصل إلى نتيجة أنه يحبذ انتشار الفصيحة، حتى تكون الرابطة التي يستطيع أن يتخاطب بها الناس في المشرق والمغرب سواء بسواء، حسب تجربته الشخصية. ثم تطرق بعد ذلك إلى إبداء ملاحظات حول بعض المعاجم التي ألفت للناطقين بغير العربية، ويدعو إلى مزيد الاهتمام بذلك، وأن تتجه في لغتها إلى البساطة والحداثة، حتى لا يصعب ذلك على المتعلم الأجنبي.

واستشهد في ذلك بأقوال عدد من الأقدمين، أمثال : ابن خلدون والمقري.

يجب علينا ــ ونحن بصدد هذه الدورة التدريبية في صناعة المعجم العربي للناطقين باللغات الأخرى ــ أن نسأل سؤالا لابدّ من جعله في مقدّمة اهتمامنا وهو :

إلامَ يحتاج الأجنبي الذي عزم على تعلّم اللغة العربية وما هي أنواع الأدوات المعجمية التي من شأنها أن تساعده في سبيل الحصول على هذه اللغة ثم التعمّق فيها وجعلها آلة فعّالة للتبادل والتخاطب وللقراءة والكتابة وللبحث والدراسة في شتّى الميادين ؟.

نعم، إنّ واضع المعاجم العربية للناطقين باللغات الأخرى مضطرّ الى مراعاة أمرين اثنين :

أولهما موقع اللغة العربية من المتعلّمين الأجانب، أعني : كيف تبدو لهم اللغة العربية وما هو الهدف الذي يسعون وراءه حينما يعزمون على تعلّمها ؟ وقد يختلف موقع اللغة العربية منهم شيئاً ما عن موقعها من ابناء اللغة العربية.

وثانيهما : حاجتهم الى أدوات معجمية خاصّة بهم وفعّالة تلائم كل مرحلة من مراحل تعلّمهم من جهة، وتلائم ميادين استعمالهم اللغة العربية من جهة أخرى.

لا أستطيع في اطار هذا العرض البسيط أن أذكر جميع الحاجات العامة التي قد يجب على واضع المعجم العربي للأجانب أن يلبّيها ولا جميع الحاجات الخاصة التي قد يجب أن يراعيها في كل مرحلة من مراحل تعلّمهم اللغة العربية خصوصا وإني لست على علم بالحاجات الخاصة بالمتعلم الافريقي ولا بحاجات المتعلم الأندونيسي أو الباكستاني ولا بحاجات غير هؤلاء المتعلمين من أبناء البلدان الأجنبية الأخرى.

وكذلك قد تختلف الحاجات باختلاف الأفراد وباختلاف الأوساط الاجتماعية التي يعيشون فيها وباختلاف أنواع العلاقات التي تربط بينهم وبين أبناء اللغة العربية من دينية ودراسية وتجارية وسياسية وغيرها.

فلا أجد مفرّا من أن اتحدّث عن تجربتي الشخصية بصفتي فرنسيا بدأت في تعلم اللغة العربية هنا في الرباط وأنا طفل عشر سنوات، إذا كانت هذه التجربة خاصة بي فإن فيها بعض عناصر لعلها تكون فرصة سانحة لتبادل الآراء بيننا اثناء هذه الدورة.

قلت إني تعلمت اللغة العربية هنا في المغرب منذ القسم الأوّل

(*) بحث مقدم إلى الدورة التدريبية في صناعة المعجم العربي للناطقين باللغات الأخرى، بالرباط في الفترة من 1 ــ 8 أبريل 1981.

من دراساتي الثانوية وكنت آنذاك في مدرسة فرنسية حرّة كانت ادارتها قد جعلت اللغة العربية مادّة اجبارية على جميع التلاميذ.

وكنا نبدأ باللغة العربية المستعملة في المغرب أعني اللغة العامية المغربيّة، وذلك مدّة سنتين، ثم، ابتداء من السنة الثالثة للدراسات الثانوية كنا نترك اللغة العامية جانبا، وكنا ندرس اللغة العربية الفصيحة بقواعدها الصرفية والنحوية ومفرداتها وتراكيبها وآدابها، وذلك إلى آخر الدراسات الثانوية حيث كنا نتقدّم للبكالوريا واللغة العربية الفصيحة هي اللغة الأجنبية الحية الأولى في برنامج الامتحان.

لنرجع الى تلك المرحلة الأولى لتعلمنا اللغة العربية.

نعم اللغة التي كنا نتلقّنها آنذاك كانت ــ مبدئيا ــ اللغة العامية المغربية. والمعجم الذي كنا نستعمله في تلك الفترة إلى جانب الأدوات اللغوية الأخرى، كان القاموس المزدوج عربي ــ فرنسي / فرنسي ــ عربي الذي وضعه الأستاذ تجيني، أستاذ اللغة العربية في الثانوية الفرنسية الرسمية بالرباط (ثانوية الحسن الثاني حاليا).

وإذا نظرت الآن إلى هذا القاموس الذي مازال في مكتبتي الشخصية، لاحظت أن اللغة التي كنا نتعلمها كانت في الحقيقة لغة وسيطة :

كانت وسيطة بمعنى أنها وحدّت بين اللهجات المغربية المحلية ــ من لهجة طنجة ولهجة فاس ولهجة الرباط ولهجة مراكش ــ من جهة،

وكانت وسيطة من جهة أخرى، بمعنى أنها قرّبت اللغة العامية المستعملة في الأوساط الشعبية لمدن المغرب الكبرى الى نوع من لغة عربيّة فصيحة وهي التي كانت متداولة في الأوساط المغربية المثقفة.

خصوصا وأن جميع المفردات التي اشتمل عليها القاموس عربي ــ فرنسي كانت مكتوبة بالحروف العربية ــ لا بالحروف اللاتينية كما هو شأن عدة قواميس اللغة العامية الموضوعة للأجانب ــ وكانت مرتبة ترتيبا جذريا يرجع كل كلمة إلى أصلها العربي.

وإلى جانب ذلك كانت القواعد الصرفية والنحوية التي كنا نتعلمها تراعي أيضا قدرا غير قليل من القواعد العامة لكلّ لغة عربية وان سقط منها الاعراب ــ كما سقطت من الكتابة من جهة أخرى، الصوتيات الخاصة بلغة المغرب ولم تبق هذه الصوتيات الا في النطق بالكلمات والجمل، أي في الكلام الشفهي.

وفي الوقت ذاته لم تكن «لغة موحّدة» بمعنى أنها اللغة النظيفة التي تستعمل اليوم في جميع الوسائل الاعلامية من صحافة واذاعة وتلفزة. ذلك أنها كانت متأصلة راسخة في الحياة الاجتماعية المغربية اليومية ومنبثقة عنها بما فيها من حيوية وتشويق الأطفال إليها، ذلك بفضل طرق تربوية فعالة كتمثيل مسرحيات قصيرة أمام أساتذة المدرسة نقتبس موضوعاتها من التراث الشعبي كنوادر جحا مثلا، وهو تراث يشارك المغرب فيه جميع البلدان العربية الأخرى.

إلى غير ذلك من الطرق التربوية التي صارت منتشرة في وقتنا الحاضر كتصوير الكراريس صورا تمثل جحا (أو غير جحا) في مواقفه المختلفة، وتزويق الخط العربي في التعاليق على تلك الرسوم والخ....

والمقصود من هذا النوع من التعليم في المرحلة الأولى من دراستنا كان أن نتعود على الكلام وعلى التخاطب وعلى فهم ما يقال وافهام ما نريد، في المجتمع الذي كنا نعيش فيه شأننا في ذلك شأن العرب أنفسهم عبر العصور وإلى يومنا هذا :

قال ابن خلدون في مقدمته ــ وهو يذكر الفرق القائم في عهده بين اللغات العربية المستعملة في الأمصار الاسلامية الكبرى وبين ما يسميه بلغة مضر

«وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم .... وكل منهم متوصّل بلغته إلى تأدية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة».

وإليكم ما كتب الاستاذ تجيني في مقدمة القاموس الذي كنا نستعمله، ونحن نشعر من وراء قوله «بفلسفته اللغوية» (إذا صح هذا التعبير) وهو يضع قاموسه :

قال بأنه جمع فيه بين ما يسمّى باللغة العربية العامية *(l'Arabe vulgaire)* وبين اللغة الفصيحة *(la langue classique)* كلّما اقتضاه الحال، أي أنه أدخل اللغة الفصيحة في قاموسه كلما تعلق الأمر بالألفاظ المجرّدة *(les termes abstraits)* والألفاظ العلمية *(les termes savants)* ثم قال :

«ذلك أن لغة التخاطب ــ ولغة المغرب أكثر من غيرها ــ لا تشتمل على اللغة الشعبية ــ أي اللغة العامية ــ فحسب، بل أنها تشتمل أيضا على لغة طبقة ذات أهمية كبرى وهي طبقة البرجوازيين والارستقراطيين والمثقفين والعلماء، أعني «لغة الطلبة».

هذا نوع من أنواع المعاجم العملية الموضوعة لطائفة معينة من الأجانب في فترة معينة من الزمن، وفي ظروف معيّنة ولأغراض معيّنة.

الاستعمال الخاصة بها أيضا، واللغات العامية من جهتها — وإن كانت أصولها عربية — صارت «لغات قائمة بنفسها مخالفة للغة مضر» كما قال ابن خلدون وهو يتحدث عن لغات الأمصار الاسلامية الكبرى لعهده.

ولا يعني هذا أنه في الواقع لا توجد علاقات وصلات وجسور كثيرة بين المستويين من اللغة العربية وخاصة في عصرنا الحديث هذا الذي نشاهد فيه تطور كل من النوعين واقتراب كل منهما إلى الآخر في جميع البلدان العربية.

ولكن في الميدان التربوي، وكذلك في ميدان البحث العلمي — والمعجم أداة من أدوات التعليم كما هو أداة من أدوات البحث العلمي — ما زلت أحتاج الى نوعين من المعاجم، يتميز كل نوع عن الآخر وفي نفس الوقت يكمل كل نوع الآخر : أي معاجم اللغة الفصيحة بما فيها من معاجم اللغة العامة ومعاجم خاصة بالميادين التي يمكن أن أهتم بها يوما من الأيام، ومعاجم اللغات العامية وخاصة معاجم اللغة العامية المغربية مادمت أهتم اهتماما خاصا بتاريخ المغرب وحضارته.

ولو وجد معجم شامل للغة أهل الأندلس في القديم لاستفدت منه أيضا في الدراسات التي قمت بها حول الحضارة الاسلامية في الأندلس ذلك أن كتب التاريخ المتعلقة بالعدوة الاندلسية فيها مفردات خاصة كانت متداولة في لغة أهل الأندلس فأدخل المستشرق *R. DOZY* عددا منها في معجمه المسمى بـ ***Supplément aux dictionnaires arabes*** وأذكر في هذا الصدد ما قاله المقري صاحب كتاب «نفح الطيب» وهو يتحدث عن ولع أهل الأندلس بعلم النحو. قال المقري :

«مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع العربية حتى لو أن شخصا من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غرّبت تصانيفه وشرّقت وهو يُقرئ درسه لضحك بملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه».

إذا كان هذا هو الحال عند عالم من علماء النحو من استعمال لغة أهل الأندلس وهو يقرئ درسه، فبالأحرى من المتوقع أن نجد في كثير من كتب المؤرخين الأندلسيين مفردات ومصطلحات وتعابير خاصة بأهل الأندلس مما يستلزم الرجوع إلى معاجم خاصة كمعجم *R. Dozy* الذي ذكرته آنفا، فلا يستطيع الباحث أن يكتفي بالمعاجم العامة للغة العربية سواء كانت مزدوجة اللغة أو باللغة العربية وحدها. خصوصا وأن المعاجم العربية الحديثة التي وضعت في الشرق مثل «المعجم الوسيط» وكذلك المعاجم العربية القديمة، قليلا ما تهتم بهذه الظاهرة المحلية للغة العربية في غرب العالم الاسلامي وهي حقائق لغوية قد يبقى الباحث حائرا أمامها إذا اكتفى بالأدوات المعجمية العادية. وإليكم على سبيل المثال نص يتعلق بتاريخ المغرب في القرن العاشر هـ/السادس عشر م، وجدته في كتاب تراجم عنوانه :

مرءاة المحاسن من اخبار الشيخ ابي المحاسن محمد العربي الفاسي (المتوفى سنة 1005هـ/1642م).

كان لباسه معتدلا يلبس قميصا حسنا وسراويل كذلك. فإن كان المصيف زاد قشّابة قُطن... وربما لبس فوق ذلك درّاعة. وإن كان الشتاء لبس مكان ذلك فوق القميص جُبَّة ذات أكْمام من ملف ابيض جيد وربما لبس تحت الجبة ثوباً ذا أزرار من ملف أخضر مسنّي أو زرعي ولعلّه هو الذي يقال لغة الفروج أو قريب منه، ويشتمل على جميع ذلك كساء صوف رقيق وهو الذي يسمّى في العُرف بالحائك....الخ».

ألاحظ أن كُلّا من مفردات «القشّابة» و«الملف» و«الحائك» غير موجود في المعاجم التي وضعت في الشرق — قديمة كانت أو حديثة — بينما كان ومازال معروفا وشائعا في المغرب العربي. اضف الى ذلك ان المعاجم الشرقية — قديمة كانت أو حديثة — تشتمل على مفردات كثيرة شاع استعمالها في الشرق وإن كانت دخيلة (من مفردات فارسية وتركية وغيرها) وهي غير معروفة وغير مستعملة في الغرب الاسلامي.

أما كلمات «القشّابة» و«الملف» و«الحائك» فلكل منها مدخل خاص في ***Supplément aux dictionnaires arabes*** لـ *R. Dozy* أو في معاجم اللغات المغربية العامية.

إن المقري كان يتحدث عن لغة أهل الأندلس بشيء من الازدراء — مع أنه كان معجبا بحضارة الأندلس الاسلامية — وكذلك ابن خلدون عندما تحدث عن «فساد» اللغة العربية في الأمصار الاسلامية الكبرى لعهده بالنسبة للغة مضر، ولعله لو عاش في عصرنا هذا واطلع على مقالات الصحف العربية لتحدث عن فساد اللغة العربية الحديثة أيضا.

أما أنا — وهذا رأي شخص ليس من أبناء اللغة العربية — أفضل أن أتحدث في هذا المضمار عن حيوية اللغة العربية ونشاطها المستمر عبر العصور والبلدان التي انتشرت فيها.

وألاحظ أن ذلك الاتجاه، أي تلك «الفلسفة اللغوية» لقاموس الأستاذ تجيني هي التي جرى عليها Marcelin BEAUSSIER في أواخر القرن الماضي لما وضع معجمه الضخم الذي عنوانه الكامل :

Dictionnaire Pratique Arabe — Français contenant tous les mots employés dans l'Arabe Parlé en Algérie et en Tunisie, ainsi que dans le style épistolaire, les pièce nouvelles et les actes judiciaires.

«معجم عملي عربي — فرنسي يحتوي على جميع الألفاظ المستعملة في لغة التخاطب بالجزائر وتونس، وعلى الألفاظ المتداولة في الرسائل والمستندات العادية والرسوم القضائية».

أما فيما يتصل بتلك التجربة الأولى التي قمت بها في دراستي اللغة العربية على هذا النمط وبوسيلة تلك الأدوات اللغوية، فأقول إنها كانت ناجحة وإيجابية لانها قامت مقام الأساس الذي استطعت فيما بعد أن أبني عليه أثناء دراستي اللغة العربية الفصيحة.

ولكن المرحلة الثانية — وهي مرحلة دراسة اللغة العربية الفصيحة ابتداء من السنة الثالثة إلى آخر الدراسات الثانوية — لم تكن ناجحة ولا منتجة بالنسبة لي ولا لزملائي.

وهذا راجع إلى ما كان يجري عليه معظم أساتذة اللغة الأجنبية من طرق تربوية سيئة. ذلك أنهم كانوا يدرّسون اللغات الأجنبية — سواء كانت عربية أو انجليزية أو غيرهما كأنها لغات جامدة شبه ميّتة لم تنتج إلا أدبا قديما مملا لا يمت إلى حياتنا وإلى حياة معاصرينا بصلة. فلم أبدأ أشعر بأن اللغة العربية الفصيحة لغة حيّة وعصرية وغنية الا بعد انتقالي إلى ثانوية الرباط الرسمية، في قسم الباكالوريا، حيث كان يدرّس أستاذ جزائري وهو يشوّقنا إلى الأدب العربي الحديث والى نشاط كتاب النهضة العربية الحديثة.

وفيما يتعلّق بالأدوات المعجمية، لم تكن القواميس الجديدة المهتمة باللغة العربية الحديثة قد صدرت بعد فكنا نستعمل القاموس المزدوج عربي — فرنسي / فرنسي — عربي الذي ألفه الأب المستشرق J.B. BELOT.

وكان هذا المعجم ومازال مرجعا يستفيد منه الطالب الفرنسي، الا انه أعوزه كل ما في الأدوات المعجمية التي صدرت عندئذ من مفردات اللغة العربية الفصيحة المتداولة الآن في كل ميادين الحياة العصرية.

إني في الحقيقة لم أبدأ أستفيد من دراستي اللغة العربية الفصيحة الا بعد انتقالي الى الدراسات الجامعية في معهد الدراسات المغربية العليا بالرباط : فجمعت فيه بين دراسة اللغة الفصيحة والتعمق فيها من جهة، وبين دراسة اللغة العامية المغربية والتعمق فيها من جهة أخرى، وأضفت الى ذلك اللغة الامازيغية.

ثم التحقت بكلية الآداب التي حلت محل المعهد بعد الاستقلال وتسجلت في القسم العربي من فرع الآداب العربية حيث درست على عدة أساتذة مغاربة ومشارقة.

وبدأت استعمل مباشرة المعاجم العربية الاحادية اللغة «كالمنجد» و«المعجم الوسيط»، إلى جانب المعاجم المزدوجة اللغة كمعجم KASIMIRSKI والقواميس الوجيزة مثل قاموس Léon BERCHER

Lexique Arabe — Français Pour l'étude de l'Arabe moderne

ومثل قاموس *L'Arabe vivant : Charles PELLAT*

ومنذ ذلك الحين قد صدرت عدة معاجم أخرى أستعملها الآن أيضا — كالمنهل وغيره — كما مازلت استعمل القواميس التي ذكرتها آنفا، كما استعمل المعاجم العربية القديمة الكبرى كلما اقتضاه الأمر، منها القاموس المحيط للفيروزابادي ولسان العرب لابن منظور وغيرهما.

ولكل معجم من هذه المعاجم وغيرها فوائده الخاصة بالنسبة لحاجات الطالب أو الباحث الأجنبي، إذ لا يستطيع معجم واحد أن يلائم جميع حاجاته فيجب عليه أن يأخذ من هنا وهناك خصوصا وأن ميادين الدراسة متنوعة من جهة وأن اللغة العربية المحدثة مازالت ولا تزال تتنوع وتتطور بسرعة عجيبة سواء في اطلاق الأسماء على الأشياء والمعاني والتصورات أو في خلق التعابير المختلفة واختيار مواضيع استعمالها في اللغة العامة المشتركة بين البلدان العربية.

نتيجة ذلك كله أني حصلت على اللغة العربية بوسيلتين، بل عن طريقين متوازيين :

طريق اللغة العامية بأدواتها اللغوية الخاصة من جهة وطريق اللغة الفصيحة من جهة أخرى بما فيها من مظاهر وخصائص مختلفة على حسب الميادين التي تستعمل فيها اللغة من دين وأدب قديم وتاريخ وفلسفة وأدب حديث إلى آخر ذلك من الميادين غير ميادين العلوم البحتة.

نعم هما طريقان متوازيان ولا سيما اذا اعتبرنا الطرق التربوية التي يجري عليها في تحصيل كل من النوعين لان اللغة الفصيحة لها قواعدها ومفرداتها وتراكيبها وتعابيرها الخاصة بها ومواضيع

وعلى كل حال أحتاج — بصفتي أجنبيا ناطقا بلغة أخرى وباحثا في اللغة العربية — أحتاج الى عدة أنواع من المعاجم : من معجم تكون فيها اللغة خالصة أكثر ما يمكن الخلوص الى معاجم اللغات العامية إذا وجدت، وبين هذين النوعين المعاجم الوسيطة المستحدثة التي توضع في البلدان العربية حاليا.

وأرى — وهذا رأي شخصي لا أفرض على أي واحد أن يشاركني فيه وإنما أعبر عنه في إطار هذه الدورة العلمية والعملية التي نتبادل فيها الآراء — أرى شخصيا أن واضعي المعاجم العربية للناطقين باللغات الأخرى لابأس من أن يتنازلوا أحيانا وشيئا ما عن صفاء لغة مضر وعن فصاحة لغة الجاحظ وعن بلاغة لغة المتنبي بل وحتى عن جمال لغة بعض كتاب النهضة كلغة طه حسين أو غيره، فيعدّوا للمتعلمين الأجانب، ثم للباحثين الأجانب، أدوات معجمية تقرب إليهم المقصود وهو الفهم والافهام «وهذا هو معنى اللغة واللسان» كما قال ابن خلدون.

شأن واضعي المعاجم في هذا المضمار شأن المقدسي الرحالة المشرقي الشهير للقرن الرابع هـ/العاشر م. صاحب كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم»، فالمقدسي في مقدمة كتابه خصص فصلا «لذكر الأسامي واختلافها»، فبعد أن تعرض لذكر الاماكن التي تتفق أسماؤها وتتباين مواضعها» — كالسوس مثلا الذي هو «كورة بأقصى المغرب ومدينة بأوله»، تعرض لذكر «الأشياء التي يختلف فيها أهل الأقاليم» مثل لحام — جزار — قصاب/قدر — برمة/زراع — فلاح — حراث/.... الخ.

ثم زاد قائلا :

«ونحو هذا كثير، وإن استوعبناه طال الكتاب، وسنتكلم في كل إقليم بلسانهم ونناظر على طريقتهم ونضرب من أمثالهم لتعرف لغتهم ورسوم فقهائهم. فان كنا في غير الأقاليم مثل هذه الأبواب تكلمنا بلغة الشام لأنها لغة اقليمي الذي به نشأت وناظرت على طريقة القاضي أبي الحسين القزويني لانه أول إمام عليه درست. ألا ترى الى بلاغتنا في اقليم المشرق بأنهم أصح الناس عربية لانهم تكلفوها تكلفا وتعلموها تلقفا، ثم الى ركاكة كلامنا في مصر والمغرب، وقبحه في ناحية البطائح لانه لسان القوم، لان قصدنا في هذا الأصل الانباء والتعريف لا المبارزة والتشفيف».